

## التصوف وآفاق العيش المشترك عند يوسف زيدان

## Sufism and the challenges of coexistence according to Youssef Zeidane

عبلة سانة\*، جامعة سطيف 2 satta.abla@gmail.com

سفيان زدادقة، جامعة سطيف 2 sofizada@yahoo.fr

مخبر السرديات والأنساق الثقافية

تاريخ النشر: 2022/6/2

تاريخ القبول: 2022/5/5

تاريخ الاستلام: 2021/11/25

## ملخص:

لقد أفضى التطور العلمي والتكنولوجي الذي أحرزته الحضارة الغربية على مختلف الأصعدة وفي شتى مجالات الحياة، إلى حالة من الشك وعدم اليقين التي طالت مسلمات العقل الأوروبي بعد ظهور النظرية النسبية وفيزياء الكم. وبعد الكشف عن الأوهام التي قام عليها هذا الفكر أخذ في مراجعة مفاهيمه وتصورات، الأمر الذي دفعه إلى الخروج من بوتقته والتوجه نحو الآخر المهمش والمنسي والمغيب من طرف هذه الذات المتمركزة حول نفسها، وبحلول هذا العصر الجديد/عصر ما بعد الحضارة الذي أعلن مجاوزته لعصر الحضارة وما انطوى عليه من المقولات، ظهرت إلى الوجود دعاوى التعارف والحوار والتعايش بين الثقافات والأديان والحضارات، مدعومة بمصطلحات جديدة أيضا دخلت المعجم اللغوي والفلسفي من قبيل: التواصل والاتصال... إلخ. حيث تروم هذه الدعاوى والجهود ضمان العيش المشترك بين الأطياف والأقليات والاتجاهات المختلفة في ظل من الحرية وبعيدا عن أشكال العنف والإقصاء. وباتت هذه الغاية تمثل مطلبا ملحا للحفاظ على كرامة الإنسان بعدما شهد من حروب وانتهاكات. وهذا المسعى ذاته يحاول يوسف زيدان - على طريقته - تكريسه ضمن الوعي العربي المعاصر، باعتباره جزءا من الوعي العالمي وتنطبق عليه شروطه، بعد أن يخضع مجموعة من المفاهيم إلى النقد وإعادة البناء من جديد.

الكلمات المفتاحية: تسامح، تحضر، عنف، تصوف، إعادة بناء المفاهيم.

تصنيف JEL : XN1، XN2.

## Abstract:

Scientific and technological development of the occidental modernity in all fields led to doubt and uncertainty. This case was the characteristic of European spirit after the emergence of the theory of relativity and quantum theory that were founded on irreal concepts. This fact has incited Youssef Ziedane to review its concepts and perceptions in order to live peacefully with the other including his religion, culture and civilization. This coexistence has created new terms such as: contact and communication. Thus, Ziedane's project is to rebuild concepts and perceptions in order to live together.

**Keywords:** Tolerance, civility, violence, sufism, rebuilding main concepts**Jel Classification Codes:** XN1, XN2.

## . مقدمة:

بعد حقبة طويلة من الجمود والانحطاط، الناجم عن موجة العنف المادي والرمزي الذي مارسه آباء الكنيسة على كل مناحي الحياة الأوروبية، عرفت هذه الأخيرة نهضة شاملة أخرجتها من عصور الظلمة لتسطع عليها شمس المعرفة وأنوارها، بعدما أخذت في إحياء التراث الفكري السابق؛ مما أنتجه العقل اليوناني والروماني وكذا العربي، تلتها مرحلتا التنوير والحداثة حيث حققت أوروبا في هذه الأخيرة أعظم المنجزات على المستويين العلمي والتكنولوجي وكانت عصر التقنية بامتياز. إلا أن هذا الوجه المشرق للعقل الغربي كان يخفي في عبايته عقلا آخر/لاعقل، مارس التهميش والإقصاء على كل ما هو خارجه، وسعى إلى محاربته باعتباره البدائي/المتوحش الذي يجب إخراجه من ظلماته إلى نور العقل/الحضارة الغربية. وانتهت نزعة السيطرة التي تملكته إلى مأساتين عالميتين عرفتهما البشرية باندلاع حربين عالميتين، وفي ظل هذا الوضع المتأزم تعالت الأصوات المشككة في مدى قدرة هذا العقل الحداثي/التقني .. على تحقيق سعادة الإنسان التي طالما سعى جاهدا لتحقيقها.

لقد وجدت نزعة الشك هذه نموذجها الأكثر اكتمالا بظهور النظرية النسبية وفيزياء الكم اللتان كشفتنا عن المغالطات التي كرسها العقل الأوروبي المتسلح باليقين، وسرعان ما وجدت سبيلها في مختلف مجالات التفكير (علم، فلسفة، فن ...) وهكذا حملت اتجاهات ما بعد الحداثة رايات الثورة على الحداثة داعية إلى تجاوزها من خلال تحطيم الثنائيات التي قامت عليها المركزية الغربية، بالكشف عن المنسي والمهمش واللاواعي داخل هذه الذات، والاتجاه نحو الآخر المختلف تعرفا وحوارا لا إقصاء واستبعادا.

وعلى الضفة الأخرى من المتوسط، نجد العقل العربي الذي يواجه هو الآخر تحديات أكثر تعقيدا، تتعلق ببحثه عن أسباب نهوضه من جديد بعد الانتكاسات المتوالية التي مني بها عبر عقود طويلة من الزمان، الأمر الذي جعله يصب اهتمامه لتحليل أسباب هذا النكوص أملا في استدراكها وتحقيق المشروع النهضوي العربي، وهو ما تجلّى في العديد من المشاريع الفكرية العربية الحديثة منها والمعاصرة التي أراد بها أصحابها تكريس الجهود لتحقيق هذا المسعى التاريخي. ويعتبر يوسف زيدان واحدا من الفكرين المعاصرين، حيث يطرح رؤية يعتبرها المسار الصحيح لتحقيق التطوير الذاتي للعقل العربي من جهة وتحديد طبيعة العلاقات التي يجب أن تحكم المجتمع الدولي ككل من جهة أخرى.

يرى يوسف زيدان أن العقل العربي في نسخته المعاصرة يعيش حالة من الخبل العام الناجم عن اختلاط المفاهيم والتصورات وانعدام المنطق، هذه الفوضى الفكرية ترتب عنها ضياع عام استشرى في جميع المجالات (اضطراب اقتصادي كبير، مستوى معيشي متدنٍ، تردي المناهج التعليمية والمستوى الثقافي بشكل عام...) وهو ما أدى في النهاية إلى سقوط دول بأكملها، يقول: "إن العقل الجمعي في مصر [والبلاد العربية]، والعقل الفردي أيضا، صار يواجه في الفترة الأخيرة حالة مريرة من انعدام الفهم، وفقدان القدرة على الإدراك، والعمى عن الرؤية الكلية للوقائع. وهو ما يقود بالضرورة إلى حالة "المواجهة مع الجنون".<sup>1</sup> ولمواجهة حالة التوهان وعدم انضباط التصورات هذه وتجاوزها لابد من تفعيل آليات التعقل، ومن هنا يصبح الإنسان بما هو كذلك غاية في ذاته. والرؤية الكلية التي يجب إنارتها من جديد، تتوجه نحو التنوع داخل نسيج المجتمعات البشرية؛ والنظر إليها في وحدتها لا أحاديثها، التي يجتمع فيها المؤتلف بالمختلف وهو الشرط الذي يحفظ لها توازنها. فلا يدعي أي طرف انفراده بالحقيقة ويتسلح بالعنف دفاعا عنها، فتتكرر المآسي التي عرفها التاريخ الإنساني قديما، في الزمن الحاضر وهو ما يحدث فعليا على الساحة العربية. فكيف بموضع يوسف زيدان هذه الإشكالية المعاصرة ضمن فضاءها الفكري والتاريخي؟ وماهي الآفاق الجديدة التي يستشرفها لبناء مستقبل أفضل للإنسان؟ بعبارة أخرى: ماهي المنطلقات الفكرية التي يبني عليها رؤيته هذه؟ وماهي رهانات تطبيقها على أرض الواقع؟

ومن هنا نختار مجموعة من الفرضيات على غرار: نسقية الديانات التوحيدية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام) أي خضوعها لبنيات كبرى كانت فاعلة ضمنها. ومن منطلق هذا النسق العام الذي ينتظم الفكر وكذا التاريخ على مدار هذه الحقب الثلاث يمكن إعادة التفكير في الوحدة الكامنة خلف هذا التعدد الظاهر على السطح المسمى بتاريخ يهودي، تاريخ مسيحي، تاريخ

إسلامي. ومن منطلق تأثير السابق في اللاحق، أي حضور الماضي في الحاضر العربي المعاصر، يمكن موضوعة الواقع الراهن ضمن هذا النسق التاريخي العام الذي ينتمي إليه لتفسير ما يحدث على الساحة الراهنة.

وتتغى هذه الدراسة، تحليل الرؤية التي يقدمها يوسف زيدان بوصفها حلا لحالة الجنون التي يعيشها العالم العربي من جهة، من خلال ربط العقل العربي بالعقل العالمي من جهة ثانية وتوضيح الارتباطات بينهما، مما يسمح بإعادة توجيه الأنظار الوجهة الصحيحة، أي توحيد الجهود للخروج من المآزق التي يعيشها الإنسان ككل في الزمن الراهن وذلك باستخلاص العبر من التاريخ. ومن أجل القيام بهذه المهمة، استأنسنا بالمنهج الوصفي والتحليلي من أجل عرض المنطلقات الفكرية التي يستند عليها الرجل، والسبيل التي يوضع بها الأحداث على مدار تاريخ طويل ممتد منذ الفترة اليهودية إلى غاية يوم الناس هذا، وصولاً إلى استنتاج الرؤية الواضحة التي من شأنها أن تنهض بسعادة الإنسان وتحقيق إنسانيته ضمن الحدود الضيقة (الوطن العربي) والكبرى (العالم ككل).

## 1. الرؤية التي ينطلق منها يوسف زيدان

خلافًا للمفكرين الداعمين لفكرة القطيعة الإبيستيمولوجية، وعلى غرار الكثير من المفكرين القدامى منهم والمحدثين، الغربيين منهم والعرب (هيجل، ابن خلدون...) نجد أن زيدان يتبنى الرؤية المنهجية القائلة بأن حركة الفكر لا تعبر عن قطائع تنفصل فيها المراحل المختلفة، ولكن هناك استمرارية وتراكم داخل تاريخ الفكر، حيث يكون السابق بمثابة القاعدة التي ينطلق منها اللاحق، على أن المهمة الموكلة لهذا الأخير ليست المحاكاة الساذجة والتماهي مع السابق، وإنما إخضاعه لعملية من النقد وإعادة البناء المتواصلة من أجل تحقيق تواصل أفضل لهذا التاريخ الفكري.

وقد اتبع زيدان هذا المنظور في العديد من البحوث التي قام بها، يقول: "حين أنظر إلى التراث الممتد منذ اليهودية المبكرة حتى الفكر الإسلامي المعاصر، أرى ما أسميه بالمتصل التراثي، وأستشعر (التساندية) الممتدة بين البنيات الكلية، المؤثرة بتفاعلها التساندي مع بعضها، عبر المراحل التاريخية المتتالية. وهذه التساندية الخفية بين العناصر المؤثرة والبنيات الكلية، تظهر بسببها في الواقع الفعلي تجليات، تنشغل عنها الأذهان بالنظر في تفاصيل الوقائع الفعلية، الجزئية، بدلا من النظر في طبيعة البنية العليا، المستترة، التي أبرزت الواقعة".<sup>2</sup> يرى إذن أن هناك اتصالا وثيقا بين الفترات التاريخية (وليس انقطاعا)، يظهر على شكل بنيات فكرية كبرى عاملة ضمن تراث يمتد بجذوره منذ الفترة اليهودية مروراً بالفترة المسيحية وصولاً إلى الفترة الإسلامية، أطلق عليه مصطلح (متصلا تراثيا). وبما أنه ممتد يصبح من المتعذر فهم الواقع الذي نعيشه اليوم بعيدا عن فهم كيفية عمل تلك البنيات الكبرى سابقا (أي ضمن الفترتين اليهودية والمسيحية). فكما لا يمكننا فهم التراث اليوناني القديم (الهيليني والهلينستي) دون النظر المتعمق في مقدماته المصرية القديمة، وكما لا يمكن الدراية بتراث عصر النهضة وبواكير زمن العقل الأوروبي بعيدا عن الأصول العربية المنتقلة إلى اللغة اللاتينية، لا يمكننا أيضا فهم تراثنا والوعي به دون النظر في هذه الأصول العميقة بما هي مقدمات له، ويمثل هو امتدادا لها.

## 2. الطريق الصوفي

انطلاقاً من هذه الرؤية (المتصل التراثي)، يخفر يوسف زيدان في جذور واحد من التصورات الكبرى والأساسية، وجد تجلياته في مذاهب فكرية وفلسفية ودينية عرفها التاريخ الإنساني منذ القدم وحتى يوم الناس هذا. فحوى هذا التصور أن الطبيعة البشرية تقوم على المتناقضات حيث يجتمع فيها السماوي والملائكي، بالحيواني مثلاً في الضعف والحقارة والغل والرغبة في الفتك. على أن هذا التنوع الذي يصل إلى درجة التناقض لا يخرج هذا الكائن من حدود التجربة الإنسانية.<sup>3</sup> وفي ظل صراع التناقضات هذا والذي يعتبر جوهر إنسانية الإنسان، يمكن أن يرتقي هذا الأخير إلى السماوي، كما يمكن أن ينحط إلى الحيواني دنيء المهمة.<sup>4</sup> ويمكن أن يعيش في حالة وسطى بين هذا وذاك، وهو ما يمثل السواد الأعظم من البشر.

هذا المفهوم الأساسي شكل نسقا مضمرًا، تجلّى مع الحكماء الأبيقوريين الذين قالوا بالكون الكبير والكون الصغير (مايكروكوزم وماكروكوزم)، أي إن الإنسان (مايكروكوزم) هو صورة للعالم الكبير، أما (الماكروكوزم) فهو الإنسان كبيرًا. ولذلك هناك تقابل بين الإنسان والعالم/الموجودات انطلاقًا من مبدئي الكون الأصغر والكون الأكبر. ويرى زيدان أن الفكرة ذاتها قد توسع فيها فيما بعد المتصوفة المسلمون كإخوان الصفا وابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود من بعدهم، يقول: "ومن أفكارهم الفلسفية الواردة في الرسائل، قولهم إن الإنسان هو الكون الصغير، والكون هو الإنسان الكبير! وقد وضعوا في ذلك فصلا بدعيا بعنوان دال هو (كيف نضد العالم بأسره) شرحوا فيه كيفية المقابلة بين الإنسان والكون. وهي فكرة فلسفية قديمة قال بها في الزمن اليوناني "الرواقيون" وأفاض فيها بعد قرون من الزمان شيخ الصوفية الأكبر محيي الدين بن عربي الذي عاش بعد إخوان الصفا بمئات السنين (...). وتفنن في بيان الأسرار الكامنة في مقابلة الإنسان (العالم الصغير) لجميع الموجودات في الكون (الإنسان الكبير)"<sup>5</sup>. ولا تزال هذه الفكرة الكبرى تظفر على الساحة الفكرية، حيث تبنيتها — حسب — الفلسفة الحديثة في مقولات الفلسفة الظاهرية

## Phénoménologie

وإذا ما عدنا إلى تراثنا الفكري نجد ابن قيم الجوزية يستند أيضا على هذه الفكرة في بيان الحكم من جعل آدم آخر المخلوقات حيث يقول: "أنه سبحانه جمع ما فرقه في العالم في آدم؛ فهو العالم الصغير وفيه ما في العالم الكبير"<sup>6</sup>. ويقول: "سبحان الله! في النفس: كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتوّ عاد (...). وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجمل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخُبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفّة الفراش، ونوم الضبع"<sup>7</sup>. يرى ابن قيم الجوزية إذن، أن في الإنسان من أخلاق البهائم ما في العالم الكبير، ولكن يمكن له أن يهذبها عن طريق الرياضة والمجاهدة. وهو ما دأب عليه أصحاب التصوف. كما أن للإنسان أيضا من الاستعدادات الأخرى ما تمكنه من تهذيب هذا الجانب وإيقاف فاعليته. فالجاحظ، وإن جعل الإنسان مقابلا للعالم إلا أنه لا يقصر الفعل الإنساني على مقابلة الموجودات فقط، لما له من الملكات التي أسبغها الله تعالى عليه وفضله بها وهي: العقل/المنطق، يقول الجاحظ: "وإنما قيل للإنسان العالم الصغير، سليل العالم الكبير، لأن في الإنسان من جميع طبائع الحيوان أشكالا، من ختل الذئب وروغان الثعلب، ووثوب الأسد، وحقد البعير، وهداية القطاة. وهذا كثير، وهذا بآفة. ولأنه يحكي كل صوت بفيه، ويصوّر كل صورة بيده. ثم فضّله الله تعالى بالمنطق والروية وإمكان التصرف"<sup>8</sup>. ومن هنا يصبح الإنسان صاحب فضل على الموجودات كلها/أعلى درجة منها، ولم تعد أفعاله مجرد محاكاة سلبية للعالم الكبير وطبائع موجوداته، لما زود به من ملكات المنطق والروية وإمكان التصرف وحسن التدبير.

ويرى يوسف زيدان أن في القرآن الكريم ما يعضد هذا التصور، ويستشهد بآية من سورة الشمس يقول فيها الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾<sup>9</sup> ويفسر مضمون الآية بأن هناك تلميحا أو إشارة من بعيد للنفس الإنسانية بالفجور وبالتقوى. يقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: "وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بين لها الخير والشر. (...) إن رجلا من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة، قال: "بل شيء قد قضى عليهم". قال ففيم نعمل؟ قال: "مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلْقَهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَرَلِّينَ يَهَيِّئْهُ لَهَا وَتَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"<sup>10</sup>. ومن هنا تظهر هذه الطبيعة الخاصة التي يتميز بها الإنسان والتي تنبع أصلا من الغاية التي وجد من أجلها على ظهر هذه البسيطة؛ إما الإفساد أو الإصلاح.

كما يرى زيدان أن هذه المفارقات وهذا التناقض الذي تنطوي عليه النفس البشرية قد تجسد فعليا في شخصية تاريخية ممثلة في شخصية القائد (تيمورلنك). فمن جهة، كان هذا الرجل يظهر في معاركه (ضد المسلمين) شهية عظيمة في القتل والفتك بهم، ومن

جهة أخرى يعلي من مقام زوجته ومعلمه حيث يبدو ضريحهما لزائر مدينة (سمرقند) التاريخية من الضخامة والفخامة بمكان، على عكس قبره الذي يبدو كقبر طفل صغير يقبع تحت قدمي معلمه. كما يمثل أيضا على هذا التقابل بين ما هو موجود في العالم وما يعتري الإنسان من الطبائع والأفعال بأمثلة معاصرة، حيث تجد (الداعشية) — حسب — بما هي فعل إنساني لها ما يقابلها في العالم ممثلا في فعل الضباع. يقول يوسف زيدان: "وعليه سواء دخلنا للأمر من مدخل فينومينولوجي ظاهري، أو من إطار نظرية العالم الكبير والعالم الصغير أو من مدخل الآية القرآنية، فإن النفس الإنسانية وعاء جامع لمتناقضات كثيرة جدا وأطياف كثيرة طرفها متباعدان جدا. أعلاها سماوي جدا وملائكي وأدناها حقير جدا، وفي ضوء هذا التنوع في المستوى قد يصل الإنسان إلى درجة أعلى من الملائكة، ومن جهة ثانية قد يصل إلى درجة أحقر من الحيوانات الدنيا، وبينهما الإنسان العادي"<sup>11</sup>.

لكن إذا ما سلمنا جدلا بهذه الفرضية التي تنسب إلى الطبيعة الإنسانية كل تلك الأفعال المتناقضة، فإننا بذلك نكون قد ألغينا مسائل أخرى ذات أهمية أيضا في تحديد العلاقات والمعاملات بين البشر، إذ هي مرتبطة بالفرد وبالجماعة كالدين والسياسة، والمصالح الاقتصادية... إلخ حيث أصبحت هذه الأخيرة سمة العصر الراهن الذي طغى عليه الاستهلاك، وأصبح الإنسان مجرد بضاعة في هذا السوق الكبير.

### 3. التصوف من منظور المتصل التراثي

وبما أن التصوف قد عالج هذه الفكرة الكبرى (الكون الكبير والكون الصغير)، يصبح إذن — من منطلق المتصل التراثي حيث أن الفكر الإنساني متصل الحلقات متقاطع الدوائر — ظاهرة إنسانية واتجاه فكري قديم قدم الإنسان نفسه. ولذلك نجد أن مختلف الحضارات قد عرفت هذه التجربة، من أكثرها بساطة إلى أوجها ازدهارا وتعقيدا، متوaslًا بذلك داخل الفكر المعاصر. حيث "نجد التصوف في اليونان القديمة، ومن قبلها الهند وبلاد فارس/ ومن قبلهم جميعا: مصر القدم. ونجده أيضا في سائر الديانات والملل والنحل، فالخبرات الدينية المختلفة تحفل بنماذج تصوفية، كالزرفانا الهندية والقبالة اليهودية والرهينة المسيحية"<sup>12</sup> ولم يخرج التصوف في نسخته الإسلامية عن هذا النسق العام، وإن اتخذ خصوصته النابعة من جوهر العقيدة الإسلامية. وقد أسهب الباحثون قديما وحديثا في بيان صلات التأثير والتأثر بين التصوف الإسلامي والثقافات الأخرى المجاورة كالفارسية... إلخ لكن يوسف زيدان يتبنى منظورا آخر في تفسير تلك الصلات، حيث يعتبره حلقة من حلقات ذلك المتصل التراثي الذي عرفته المنطقة العربية عبر تاريخها الطويل، وما التصوف الإسلامي إلا امتداد لتلك الرؤى التصوفية التي سادت من قبل هناك، يقول: "ومثلما كان انتشار الإسلام، منطقيا وضروريا بالقياس إلى الظروف العامة في ذاك الزمان، كان ابتداء التصوف بين المسلمين وانتشاره السريع في أنحاء العالم الإسلامي، منطقيا وضروريا. إذ إن الموروث الثقافي للجماعات والأمم حديثة العهد بالإسلام، كان لابد من ظهوره في النطاق العام الجديد (العربي، الإسلامي) وهو ما ظهر مبكرا في عدة أشكال، منها المساهمات اليهودية المعروفة في تراثنا باسم "الإسرائيليات" ومنها الامتدادات العربية الإسلامية للقضايا العقائدية السريانية المسيحية، المعروفة في تراثنا بأسماء (علم الكلام، علم العقيدة، أصول الدين)"<sup>13</sup>. يصبح التصوف — وفق هذه الرؤية — لا يمثل مظهرًا شاذًا ظهر من العدم ضمن الثقافة الإسلامية، إنما هو امتداد ضروري واستمرار لحركة هذا الفكر الذي عرفته الشعوب حيث سادت الثقافة العربية والإسلامية فيما بعد. يقول يوسف زيدان: "في القرن الثاني الهجري، ظهر التصوف وانتشر انطلاقًا من التزوع الإنساني الأصيل للتعالي عن المحسوسات وصولًا إلى حقائق الوجود العميقة، وتأسيسًا على عديد من التوجيهات القرآنية والمواقف التقشفية المبهرة منذ عصر النبوة، وإعجابًا بالصفاء الروحي الذي يعيشه الرهبان وزهاد الهنود، وهروبًا من الانغماس في الترف والملذات إبان العصر العباسي الأول. وقد ظهر التصوف عند المسلمين لهذه الأسباب وانتشر بينهم، كطريق روحي يختاره نخبة من النساء والرجال الفارين من زخرف الدنيا الفانية، آملين في اللحاق بعالم الحضرة الإلهية وحقائقها الأزلية الأبدية"<sup>14</sup>. لم يظهر التصوف الإسلامي إذا ولم يطفر من العدم (فكل معرفة تنشأ عبر التراكم) وإنما ظهر نتيجة

لظروف معينة استدعتها حقبة تاريخية خاصة من تاريخ الإسلام، وغذت ذلك التوجه الأصيل في النفس الإنسانية، الذي يتوق إلى احتضان الكلي/الأزلي/الإلهي... عبر التاريخ وعلى اختلاف الأمم.

وتبقى الغاية الأساسية التي سعت إليها هذه التوجهات الروحية بما هي نزوع روحي متأصل في الإنسان ذاته، واحدة على تعددها. حيث تتمثل في محاولة الوصول إلى الحقيقة/اليقين وبالتالي تحقيق منتهى السعادة المتأتمية من ملازمة الحقائق العلوية بعد التجرد من كل أنواع الميول والرغبات الحسية الغالبة على النفس البشرية.

لكن وعلى الرغم من هذا الامتداد التاريخي الطويل، إلا أنه لم يحدث أن شكل السواد الأعظم في الفكر الإنساني عموماً والإسلامي منه، ولم يحظ بالقبول والترحاب، حيث أثار ولا يزال يثير حفيظة الفقهاء وغيرهم متهمين أصحابه بمخالفة الشرع والخروج عن الدين وحدود العقل والمنطق. وربما يرجع ذلك الخوف والتوجس منه إلى ما سلكه أصحاب الطريق من تستر وكنمان لأسرار هذا الطريق، وما زاد من هذا الغموض هو تلك اللغة الخاصة التي ابتدعها المتصوفة في صميم اللغة، والتي تعني بأداء مهمة التواصل والاتصال في آن، حيث فضلوا الأساليب الأكثر غموضاً للبوح على المباشرة والإيضاح، خوفاً من سوء الفهم الذي سيصحب هذا البوح، وهو ما حدث كثيراً مع أصحاب التصوف. وهكذا احتفظ أصحاب الطريق بأسرارهم التي انكشفت لهم بعد سلسلة من الارتقاءات التي يسلكها الصوفي في رحلته العروجية نحو الملكوت الأعلى، وتشبث الفقهاء بأرائهم حول التصوف وأصحابه.

#### 4. التصوف والحب

للطريق الصوفي معلمه الخاصة التي يسلكها الإنسان/المريد من أجل الوصول إلى غايته المنشودة، وإن كان آخر هذا الطريق متحجبا، فإن بداياته معروفة حيث تلخص في: "تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكل همة على الله تعالى، فطريق الصوفية يرجع إلى تطهير محض، وتصفية وجلاء ومحاسبة للنفس ثم استعداد وانتظار للتجلي"<sup>15</sup>. يبدأ الطريق الصوفي إذن بالابتعاد عن مختلف الصفات المذمومة التي منبعها الجانب الحيواني في النفس، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال مجموعة من المجاهدات التي يقدمها المتصوف، وكلما ازداد بعده وانفصاله عن هذا الجانب ترقى في السلم الروحي تدريجياً حتى تتجلى وتتكشف لعينيه الأنوار الإلهية/المعرفة الحققة... "فالمعرفة - كما يقول القشيري - هي صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى في معاملاته، تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله تعالى في جميع أحواله، وانقطع عنه هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعو إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبياً، ومن آفة نفسه برياً، ومن المساكنات والملاحظات نقياً، ودام في السر مع الله تعالى مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه بتعريف أسرارهم، فيما يجريه من تصاريق أقدارهم، يسمى عارفاً، وتسمى حالته معرفة"<sup>16</sup>. إن الغرض إذن من تقديم كل تلك المجاهدات التي تسعى أساساً إلى قمع شهوات النفس الإنسانية، إنما هو الوصول إلى معرفة الله تعالى؛ بما هي المعرفة الحقيقة التي يسعى الطالب لنوالها، ولا سبيل عندهم لبلوغ هذه الغاية إلا بتقديم المحبة، وعلى قدر هذه المعرفة تأتي المحبة أيضاً، ومن هنا تصبح هذه الأخيرة/المحبة غاية ووسيلة في الآن ذاته؛ غاية المتصوف بما هي معرفة بمحبوبه، ووسيلته أيضاً للوصول إليه، فلولا المحبة ما كان السعي، يقول محمد مصطفى حلمي: "فنحن حين نقرأ تعريفات المعرفة وتعريفات الحب، نخيل إلينا أننا إزاء لغتين تترجم إحداها ما تعبر عنه الأخرى: فالعارف الذي يتحدث عن معرفته، إنما يتحدث عن الحب ولكن في لغة المعرفة، كما أن الحب الذي يتحدث عن حبه، إنما يتحدث عن المعرفة ولكن في لغة الحب"<sup>17</sup>. الحب والمعرفة إذاً غايتا المتصوف ووسيلته لتحقيق الوصال الذي يسعى إليه. فالتصوف هو انقطاعاً واتصالاً في آن؛ انقطاع عن كل المعوقات التي من شأنها أن تحجب الإنسان عن بلوغ اليقين مثل: الجسد/الواقع/المذهب/اللغة... واجتهاد متواصل للوصول، لكن هذا الأخير متعذر مستحيل، لأن المتصوف إذا ما "انتبه (...). إلى وصال المحبوب/خلق بأجنحة الوجد في سماء المحبة.. ولكن، بلا وصول. وكيف ينتهي الوصل بالصوفي إلى وصول، ومحبوبه ومراده

لأنهائي، والمحبة والإرادة لا آخر لهما<sup>18</sup>. ومن هنا شكلت المحبة أساس المذهب الصوفي وعماده، ولم يخل مؤلف مما وضعه أصحابه من بيان لصفاتها وشرطها، حتى أصبحت عندهم درجات يرتقي فيها السائرون، بل ووديان جعلها "فريد الدين العطار" سبعة في كتابه "منطق الطير" على الحب أن يعبرها إذا رام الوصول إلى حبه المتعالي، "وتتمثل هذه الوديان في "وادي السعي" وفيه يتعين على الحب أن يتخفف من كل رغبته (...) ثم يمر على "وادي الحب"، وهو المنطقة اللامحدودة التي يفنى الحب فيها شوقاً إلى محبوبه، ثم وادي "المعرفة الحدسية" وهو الوادي الذي يتلقى فيه الفؤاد إشراق الحقيقة واختبار الذات العلية مباشرة ودون وسيط، ثم "وادي الانفصال"، وفيه يتحرر الحب من كل رغبته ويشعر بالاستقلالية، ويغوص في نشوة الأشواق وينفصل عن الحياة البشرية. ثم يعرج على الوادي الخامس وهو "وادي التوحيد" وفيه يصل الحب إلى حقيقة كنه الأشياء ويفهم أن ما يظهر له كأشياء مختلفة في الظاهر هو الحقيقة شيء واحد دون زيادة أو نقصان. ثم يعبر "وادي الدهشة"، وفيه يجد الحب الحيرة بسبب عدم فهمه أشياء كان يفهمها من قبل، والسبب في ذلك أن الحب حل محلها فغير وجهه نظره لها، ثم الوادي الأخير وهو وادي الموت وفيه يفهم الحب السر الأكبر، وأن هذا المكان هو الأليق به، وأنه ليس معنى أن تذوب قطرة الماء في المحيط أن تتنازل عن طبيعتها، بل تحتفظ بتميزها في معناها<sup>19</sup>. يتضح إذن من خلال هذا التفصيل في درجات المحبة وأدوارها، الاهتمام الذي يوليه أصحاب التصوف لها باعتبارها شرطاً أساسياً يجب أن ينضح به القلب ويظهر في السلوك، فيصبح الصوفي كقطرة الماء في المحيط التي تذوب فيه محافظة على خصائصها في آن. والصوفي الحقيقي عندهم من لا يطلب سلطاناً ولا رئاسة لأنها انشغال بالفاني عن الباقي، لأنهم "يؤمنون أن الحب إذا تمكن من قلب العبد، كان العبد كتلة حب تتحرك على الأرض، ويعيش العبد بلا كره ولا بغض ولا حقد ولا حسد، ولا تكالب على الدنيا ولا رغبة في الفوز بما ليس له من الدنيا، ويتنازل عن نصيبه من أعراض الدنيا الزائلة"<sup>20</sup>. ومن هنا كان الجنوح إلى السلم وعدم التعرض للخلق بالسوء - وإن تعرضوا له - أحد الأصول التي أنبى عليها التصوف، يقول سهل بن عبد الله التستري: "بنيت أصول مذهبنا على ست: التمسك بكتاب الله، والافتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وعدم إيذاء الخلق ولو آذونا، والبعد عما نهى الله عنه، والتعجيل بالحقوق"<sup>21</sup>. إن روح التسامح هذه إنما غذتها الروح الإسلامية في هذه النسخة من التصوف، ولم يكن المتصوفة ليخرجوا عن أخلاق المسلمين وعاداتهم في التفكير، وما سبيل التصوف إلا الوجه/العقل الآخر المستدعى ضرورة من داخل العقل الإسلامي. ومن هنا يضرب يوسف زيدان مثالا بما قام به المتصوفة لما أدخلوا الإسلام أول الأمر إلى مناطق السودان والصحراء الإفريقية، ولما اتصفت فتوحاتهم بالسلمية وعدم اللجوء إلى العنف وإراقة الدماء/احترام الآخر والإعلاء من قيمة الإنسان، الأمر الذي جعله يعتبر التجربة الصوفية التعبير الأمثل عن الوعي المتحضر الذي يجب احتداؤه في ظل الوضع الراهن.

وتعبيراً عن مواجدهم طفق قاموس المتصوفة بعبارات الحب والعشق والوجد والفناء بما هو أعلى المنازل التي يسعى السائرون إلى بلوغها من جهة، كما عجز من جهة أخرى بألفاظ من قبيل الوصل والتواصل والوصال، بما هي منهج المتصوفة وغايتهم التي يرومون بلوغها في آن.

إن هذه المصطلحات غادرت التربة الصوفية لتنتفتح على العالم وتتخذ صبغة إنسانية حيث أصبحت شعاراً حملته مختلف التيارات الفكرية ذات المنحى الديني وغير الديني الباحثة عن إنسانية الإنسان في ظل أشكال التجاوز التي تمارس ضده باستمرار خاصة في الوقت الراهن الذي يميزه الطغيان المادي/التقني للعلم حيث يتجه نحو القضاء على الروح الإنسانية باكتساحه شتى مجالات الحياة، وأدى إلى إبادة جماعية في الحريين العالميتين. يقول يوسف زيدان: "الإنسان جامع للمتعارضات جميعها، وفيه المراتب كلها، كامن: السمو والسفالة، الملائكية والشيطنية، النبل والحقارة الأثرة والإيثارة. ولهذا قيل إنه الكون الجامع للأمر كله. ولا ارتقاء له في تلك المراتب، إلاّ بالحب"<sup>22</sup>. وتتخذ المحبة أهمية كبرى ضمن التوجه الفكري العام ليوسف زيدان، حيث يرى أنها الوسيلة الوحيدة التي يسمو بها الإنسان عن الحيوانية الكامنة فيه - بما هي سلوك عدواني نحو الآخر ورغبة في الفتك - وبتعاليه عبرها إنما يتحرر من كل

ما يمكن أن يعوقه عن الوصول إلى سقف أي تجربة يخوض غمارها ومهما كانت ماهيتها. على أن مثل هذه الرؤية الطوباوية وإن كانت ممكنة نظريا فإنه من الصعوبة بمكان تطبيقها ضمن مجتمعات تحيى على التمييز وحياء الفروقات وتكريسها على كل الأصعدة الثقافية والسياسية والاجتماعية...

## 5. التصوف ووحدة الوجود

تعتبر قضية وحدة الوجود واحدة من القضايا الأساسية ضمن الفكر الصوفي، وملخصها أن المتصوفة لما انشغلوا بحب الذات الإلهية، "فنوا في حبهم لله عن أنفسهم وعن كل ما سوى الله فلم يشاهدوا في الوجود غيره".<sup>23</sup> ولذلك نجد أصحاب مذهب وحدة الوجود يؤمنون أنه لا موجود في الكون سوى الله ورأوا في جميع الموجودات تجليات للقدرة الإلهية، وهو ما يفصله ابن عربي في قوله بأن: "الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاقها متكثرة بصفات وأسمائها لا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات. وهي قديمة أزلية أبدية لا تتغير وإن تغيرت الصور الوجودية التي تظهر فيها. فهي بحر الوجود الزاخر الذي لا ساحل له، وليس الوجود المدرك المحسوس إلا أمواج ذلك البحر الظاهرة فوق سطحه. فإذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هي "الحق"، وإذا نظرت إليها من حيث صفاتها وأسمائها: أي من حيث ظهورها في أعيان الممكنات قلت هي "الخلق" أو العالم. فهي الحق والخلق والواحد والكثير، والقديم والحادث، والأول والآخر، والظاهر والباطن".<sup>24</sup> يجمل هذا القول لابن عربي ملخص عقيدة وحدة الوجود كما تجلت عنده، فهو يرى أنه لا وجود في الكون سوى حقيقة واحدة ثابتة لا تتغير هي الله عز وجل، أما بقية الموجودات/العالم/الخلق فما هي إلا تجليات ظاهرة/أعيان لأسماء الذات الإلهية وصفاتها، ومن هنا ينه ابن عربي إلى ما اعتبره خطأ وقع فيه غيره باعتقادهم بأن الحق شيء والخلق شيء آخر مختلف حيث نبذه يقول:

"فَالْحَقُّ خَلَقَ بِهَذَا الْوَجْهِ فَاعْتَبَرُوا

وَلَيْسَ خَلْقًا بِهَذَا الْوَجْهِ فَادْكُرُوا

جَمْعٌ وَفَرَقٌ فَإِنَّ الْعَيْنَ وَاحِدَةٌ

وَهِيَ الْكَثِيرَةُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ".<sup>25</sup>

في قوله هذا، يشرح ابن عربي إذن نوع العلاقة بين الله والعالم/المخلوق ويمثل عليها بصورة تقرها إلى الأذهان باستحضاره استعارة العين، هذه الأخيرة التي تبقى واحدة لا تتعدد رغم تعدد الصور الكثيرة التي تراها. ومن حيث إن الاختلاف لا يعدو أن يكون ظاهريا فقط/عياني لا يمس جوهر تلك الوحدة الجامعة. وقد تفرع عن هذا الاعتقاد اعتقاد آخر لا يقل خطورة عن الأول ألا وهو (وحدة الأديان).

يقول أبو سعيد الخراز: "إن الله لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها". وهو ما يشير به إلى أن التناقض البين بين الصفات الإلهية هو الدلالة الحقيقية على وحدة هذه الصفات، فهو الظاهر والباطن، الأول والآخر، المبدئي والمعيد، الرحمن والمنتقم...<sup>26</sup> وما اختلاف مظاهر العبادة وتقديس الذات الإلهية إلا راجعا بالضرورة لاختلاف صفاتها وأسمائها، وعليه فالمعبود واحد بالضرورة وإن اختلفت أشكال العبادة حتى التناقض. فالاختلاف نابع من الوحدة ذاتها، لأن "الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر"<sup>27</sup> ومن هنا يصبح التعصب لفرقة معينة بدعوى حيازتها للحقيقة وإنكار حق الآخر في الاختلاف إنما هو إنكار للوحدة ذاتها، هذه الأخيرة بما هي وحدة للأضداد.

ويظهر هذا الاعتقاد الذي دفع أصحاب هذا المذهب إلى المجاهرة بالاعتراف بجميع العقائد الدينية على اختلافها: مسيحية، إسلام، وثنية... في أجلي صورته في فلسفة "ابن عربي" ومن مشوا على دربه من اللاحقين كـ "الجيلي" و"ابن سبعين" و"التلمساني"، إذ قالوا أن الكل عابد لله بالضرورة؛ يعبد لاسم من أسمائه أو لصفة من صفاته، ومن هنا "يؤكد (الجيلي) على أنه لا يوجد مخلوق

إلا وهو يعبد الله إما بحاله أو بمقاله أو بفعاله ... أو بذاته وصفاته، فكل إنس وكل جان — بل كل ما في الوجود — عابد لله بالضرورة (...). وبالنسبة للملاحدة والزنادقة والخارجين عن دين الإسلام من أهل الأهواء والملل والنحل، فيقول الجيلي: كلهم عابد لله، والله تعالى يهدي ويضل.. فلا بد من ظهور الهداية والضلال في خلقه، فكما يجب ظهور اسمه أثر اسمه (المنعم) كذلك يجب ظهور أثر اسمه (المنتقم). أما اختلاف عبادات أهل الديانات، فيرجع في رأي الجيلي إلى اختلاف مقتضيات الأسماء والصفات الإلهية<sup>28</sup>. من خلال هذا يشرح "عبد الكريم الجيلي" باعتباره واحدا من المتصوفة الذين قالوا بوحدة الوجود وآمنوا بها مذهباً ومعتقداً، كيفية ظهور أثر صفات الذات الإلهية في أشكال العبادة مما يؤدي إلى تعددها واختلافها، وبالتالي ضرورة الاعتراف بها جميعاً.

ويوضح "ابن عربي" أن دافعه إلى الإيمان بكل العقائد، إنما هو بلوغه المعرفة الحقة والحقيقة الواضحة التي غابت عن غيره، لما اتخذ من الحب والمحبة ديناً له، يقول في هذا:

"لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَكْبَرُ صَاحِبِي

إِذَا لَمْ يَكُنْ دِينِي إِلَى دِينِهِ دَانِ

لَقَدْ أَصْبَحَ قَلْبِي قَابِلًا كُلِّ صُورَةٍ

فَمَرَعَى لِغَزْلَانٍ وَدَيْرٍ لِرُهْبَانِ

وَبَيْتِ أَوْثَانٍ وَكَعْبَةٍ طَائِفِ

وَأَلْوَاخِ تَوْرَةٍ، وَمُصْحَفِ قُرْآنِ

أَدِنُ بِدِينِ الْحُبِّ أَنِّي تَوَجَّهْتُ

رَكَائِبُهُ، فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي".<sup>29</sup>

والعقيدة ذاتها نجدتها عند "الجيلي" حيث يعبر عنها في قصيدته العينية، قائلاً:

"وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي حَيْثُ أَسْلَمَنِي الْهَوَى

وَمَالِي عَنْ حُكْمِ الْحَبِيبِ تَنَازُعِ

فَطَوَّرَا تَرَانِي فِي الْمَسَاجِدِ رَكْعًا

وَطَوَّرَا فِي الْكَنَائِسِ رَاتِعِ

وَإِذَا كُنْتُ فِي حُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَاصِيًا

فَإِنِّي فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ طَالِع".<sup>30</sup>

ومن هنا تصبح المحبة — كما يقول ابن عربي — هي المحرك الأول لهؤلاء المتصوفة على اختلافهم، والدافع الملازم لهم في ممارستهم الفعلية.

إن القول بأن الدين واحد ممثلاً في: اليهودية والمسيحية قبل تحريفهما والإسلام هو من مقتضيات الإيمان بالله مثل كل تلك الشرائع في الأمم المختلفة لأجل هدايتهم إلى سواء السبيل، لكن ما ذهب إليه أصحاب نظرية وحدة الوجود إنما هو من التطرف بمكان، لذلك تعرض القائلون بهذه النظرية إلى حملة من الانتقادات في القديم والحديث واتهموا بالمروق والزندقة، وقد وضعت فيهم التصانيف للرد على ما قالوه من شبهات وجب إبطالها وتفنيدها للحفاظ على عقيدة الناس ودينهم، وكان لابن عربي النصيب الأوفر من هذه المؤلفات باعتباره صاحب النظرية وأول القائلين بها. ويعد ابن تيمية واحداً من الفقهاء الذين انبروا للرد عليهم، ومما ألفه لهذا الغرض نجد ما يلي: (حقيقة مذهب الاتحادية)، (الحجج النقلية والعقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية)، (الرد الأقوم

على ما في فصوص الحكم)، (السبعينية، أو الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة، أو بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد).

## 6. التصوف؛ إعادة بناء في المفهوم

عني يوسف زيدان - على غرار غيره من المفكرين العرب المعاصرين - بالوضع الراهن الذي تعيشه البلاد العربية، ومن هنا جاء اهتمامه بالتراث، حيث يعتبره مرحلة أساسية في طريق الوعي بالقضايا المعاصرة. ومن منطلق اركيولوجي يعيد بناء مجموعة من المفاهيم الأساسية والتصورات الكلية التي تحكم الوعي العربي المعاصر والعودة بها إلى أصولها، كما يعيد إحياء مفاهيم أخرى تراثية وتوطئتها من جديد ضمن الفكر المعاصر، في محاولة للخروج من حالة (الجنون) التي تخيم على الوضع العربي كما العالمي. ومن بين المفاهيم التي سيسلط عليها معاوله النقدية من أجل إعادة بنائها من جديد ضمن الفكر المعاصر، مفهوم التصوف.

يرى يوسف زيدان أن هناك العديد من التعريفات المدرسية للتصوف، مثل قولهم: التصوف كلمة مشتقة من لفظ صوفيا أي الحكمة في اليونانية والصوفي هو الحكيم، وتعريف ثان يقول: التصوف مشتق من الصوف لأن الزهاد الأوائل كانوا يلبسون الصوف، وثالث يقول: التصوف من الصفاء لأن نفس الصوفي تكون صافية، وتعكس أبيات أبي الفتح البستي جملة هذه الخلافات، حيث يقول:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِي وَاخْتَلَفُوا

وَلَمْ يَكُنْ الْبَعْضُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ

وَلَسْتُ أَنْحُلُ هَذَا الْأِسْمَ غَيْرَ فَنَى

صَفَى فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي".<sup>31</sup> يرى أن هذه التعريفات المتداولة مدرسية ولا تعبر عن المعنى الحقيقي للتصوف لذلك يحاول ضبط مفهومه من جديد، بعد تخليصه من هذه الدلالات التي لحقت به؛ ربطه بأشخاص معينين أو مظهر بعينه/زهاده، حكماء، لابس الصوف ... أو حتى فترة تاريخية محددة، ومن خلال المنظور الذي يتبناه/المتصل التراثي يعطيه قيمة مضافة بربطه بسياقاته الفكرية والتاريخية حيث يصبح التصوف نزوعا متأصلا في طبيعة الإنسانية، يقول زيدان: "التصوف نزعة إنسانية تحدد بالفرد إلى الابتعاد تماما عن المنطقة الدنيا/ السفلى/العطنة في النفس الإنسانية والتعلق بالجزء الأعلى منها"<sup>32</sup>. إن هذا التعريف الجديد يخرج التصوف من الرؤية التي تحصره في دين معين أو ضمن طائفة معينة من الناس أو مظهرها خارجيا، ليصبح نزوعا فطريا في الإنسان. وقد تجلّى هذا النزوع عبر مظاهر مختلفة عرفها التاريخ الإنساني، وشكل رؤية للعالم/وعيا بالذات وبالأخر تقوم على التعالي على الطبيعة/الواقع/الجسد/الحيواني، والسمو بالنفس إلى مستوى أعلى حيث تتعلق بالروحي/الملائكي/السمائي...

يعيد يوسف زيدان بناء مفهوم التصوف بصفة جذرية بناء على النسق العام الذي ينتمي إليه، فلا يعود مقصورا على التزعة الدينية فحسب (كما هو شائع) وإنما يتعداه إلى كل فعل إنساني متمرد على النمط ويتغى الكلي والسمائي، ويكون مدفوعا بالحبّة الخالصة/النظر بعين القلب دون سواه، وإن كان أصحابه غير متصوفة بالمعنى المعتاد لهذه الكلمة. يقول: "التصوف نزعة أصلية في الإنسان الساعي إلى ملازمة الحقائق العلوية العميقة للكون، والتوسل إلى انعكاس معاني الكون على المرآة الذاتية (الباطنة) لهذا المتجرد عن المحسوسات، الطامح إلى سطوع الأنوار العلوية على مرآته، آملا في تجلي المعارف الكلية بالكشف الذاتي المتعالي على قواعد الإدراك الحسي والاستدلال الاستقرائي والاستنباط العقلي.. بعبارة أخرى: الصوفي هو المنهمك في عشقه ومشاهداته، وهو الناظر في الكون بعين القلب"<sup>33</sup>. يصبح التصوف والحال هذه مختلفا عنه كما تجلّى داخل المنظومة الفكرية المتداولة، إذ يعبر عن "نزعة إنسانية حرة (مطلقة) قد يكون صاحبها "صوفيا" استجاب لهذا النداء الداخلي للعلو أو يكون مندرجا ضمن جماعة صوفية معينة لها مشايخ وتقاليد في السلوك (أوراد، حلقات ذكر... إلخ) فهو يصير في هذه الحالة "متصوفا". وبالتالي فلا يشترط التطابق بين الصوفي والمتصوف"<sup>34</sup>. يختلف الصوفي عن المتصوف إذن - في تحليل زيدان - ولكن ضمن شرط خارجي/شكلي فقط يتعلق ببعض

التقاليد التي حفظها الصوفي عن مشايخه، دون أن يمس ذلك بالجوهر الحقيقي للترعة الصوفية حيث تبقى مشتركة بينهما. ومن هنا يرتبط التصوف " بالفن والأدب، وبالشعر الذي يخلق فوق الآفاق المعتادة، ويتجاوز الوقائع اللحظية والمناسباتية.. والمتصوف قد يكون صوفيا على طريقته، حتى لو كانت حياته تخالف ما عهدناه في سيرة الصوفية من معاناة ورياضات روحية، لكن كتاباته ورؤاه وإبداعاته تشي بتزوعه التصوفي الذي يظهر مثالا في بعض أعمال ابن سينا<sup>35</sup>. ومن هذا المنطلق يحشد زيدان تحت عباءة التصوف مجموعة كبيرة من الشخصيات التاريخية ذات التوجهات الفكرية المختلفة من فنانيين وعلماء وأدباء ورجال دين من أمثال: بيكاسو، سلفادور دالي، مايكل أنجلو، دافينشي، رفايل، ستيفن هوكنج، موزارت، المتنبي، أبو العراء المعري، ويرى أن وجه الشبه بين المتصوفة المعروفين وبين هؤلاء الفنانين والعلماء أن الفريق الأول/المتصوفة يوصل التجربة الدينية إلى سقفها الأعلى كما يوصل الفريق الثاني التجربة العلمية والإبداعية إلى سقفها الأعلى. وعن هذه الأخيرة يمثل بكل من المتنبي وأبي العلاء في داليته الشهيرة، وجدهما من أكثر النماذج تعبيرا عن حقيقة التصوف متسائلا، هل يستطيع أحد أن يتوغل في اللغة على هذا النحو ويستشعر هذه الإيقاعات العجيبة ويصل إلى هذه الحساسية اللغوية لولا الترعة الصوفية؟ وغايته من هذا الاستفهام إنما هي التأكيد على التغيير الجذري الذي يصيب اللغة (بيت الوجود) إذا ما ارتبطت بالتصوف، فيزعان جميعا إلى السمو والتعالي/التحضر المفعم بالحب والعتاء اللامتناهين. وعلى النحو ذاته "يعد الشاعر الفرنسي العجيب "رامبو" متصوفا على طريقته الخاصة، لا سيما حين رسم صورة شعرية ترجمتها "وشعاع ذهبي يتخضب في هدوء، على أطراف الأغوار المتعابدة! وأشجار صغيرة، من دون قمم، يغرد عليها عصفور ضعيف" لأنه هنا يرسم صورة مفارقة، متعالية عن الواقع. وهو الأمر ذاته الذي يظهر عند الشاعر الإنجليزي "بيتس" حين تغمره الترعة الصوفية فيقول في قصيدة له، متجاوزا الواقع المرئي ومفارقا المعتاد، ما نصه: "في الغابة رأيت نمرًا، فهتفت به: يا أخي .."، كما تتجلى الترعة الصوفية في رسوم المنمنمات، وفي لوحات صلاح طاهر التي يتموج فيها الحرف العربي مع اللون الباهر، وفي بعض أعمال سلفادور دالي التي تسيل فيها الأشياء الجامدة ويعاد تكوين المراتب في الوعي... فهذه كلها حالات صوفية، حتى وإن كان أصحابها غير متصوفين بالمعنى المعتاد للكلمة".<sup>36</sup> تصبح الرؤى الشعرية إذن والطفرات الفنية والعلمية أيضا نوعا من التصوف وإن كان أصحابها من غير المتصوفة. ووجه الشبه بين هؤلاء جميعا على اختلاف تياراتهم واتجاهاتهم الفكرية إنما هو تجاوزهم للوقائع اللحظية والمناسباتية، الأمر الذي مكّنهم من الوصول إلى نظرة كلية تخاطب الإنسان في وحدته؛ أينما كان ودون حصره ضمن حدود ضيقة: دين، جنس، ثقافة... وهذه الرؤية الأولية التي فقدت فاعليتها مع الزمن هي ما يحتاج الإنسان المعاصر إلى استعادتها من أجل تاريخ جديد للإنسان يكتب انطلاقا منها كما تجلت عند هؤلاء المتصوفة ذوي التوجهات الفكرية الواحدة/المختلفة، بدلا من تاريخ السياسيين والعسكريين الذي ترسخ على مستوى الوعي الفردي والجمعي، هؤلاء الذين فشلوا منذ القديم وحتى يوم الناس هذا في توحيد الإنسان وتحقيق أمنه وسعادته.

تصبح الغاية من التصوف إذن، في ظل هذه الرؤية الجديدة التي يسعى يوسف زيدان إلى تفعيلها ضمن الوعي المعاصر، إنما هي العودة بالإنسان إلى وحدته/إنسانيته التي تم تغييبها خاصة في الزمن الراهن، وما أدى إليه هذا التغييب من تصاعد في حدة التأزم ضمن حدود البلاد العربية من جهة وفي علاقتها بالغرب من جهة أخرى. ولا يتم بلوغ هذه الغاية وتحقيقها فعليا إلا بالدفع بالحب الشاملة التي تجعل النفس البشرية تسمو عن الجانب الحيواني/الضيّق/المتركز حول ذاته، إلى الجانب الأعلى/المنفتح على الآخر المختلف. يقول يوسف زيدان: "الحب هو (...). روح الشرائع السماوية كلها، وهدف الفنون الراقية، وأعمق ما يمكن أن يعطيه الإنسان. ولكن في المقابل من ذلك، فالحب هو العملة النادرة في كل الأزمنة، وهو الموجود المفقود دوما، مهما تغنى الناس به وخصوصا العوام منهم. لأن المقت أسهل على العوام من الحب، والكراهية أكثر جاذبية لمعظم الناس، ولا تحتاج الجهد الذي يتطلبه الحب".<sup>37</sup>

## 7. آفاق الترعة الصوفية ورهانات العيش المشترك

إن القضية المحورية التي يتبناها يوسف زيدان في خضم كل هذا "الجنون" الذي يعيشه العالم والعرب خاصة، والتي يسعى إلى إعادة توجيه الاهتمام إليها من خلال عمليات تفكيك المفاهيم التي تحكم الوعي العربي وإعادة بنائها من جديد، إنما هي لا جدوى التزايدات والتسلح بالعنف في حل التناقضات التي تظهر على الساحات الفكرية والواقعية، فقد أثبت قديما وحديثا فشله في ذلك، بل يكفي تفعيل آليات التعقل للكشف عن الوحدة الكامنة ضمن هذا التراث الكبير ذي التجليات الثلاث المعروفة (الحقبة اليهودية والمسيحية والإسلامية) فخلف كل التناقضات البادية على السطح بنى فكرية كبرى استمرت فاعليتها ضمن حدود هذا التاريخ الطويل فباتت تعبر عن ظواهر متناقضة على السطح لكن المتعمق فيها يجدها تجتمع ضمن وحدة كلية واحدة.

وبما أن جوهر التصوف ضمن الرؤية الجديدة التي يقدمها يوسف زيدان، إنما هو البحث عن (الإنسانية) التي تجمع الناس أو يفترض أنها كذلك، تصبح المهمة الموكلة إلى الجميع إنما هي تحقيق هذا المطلب للارتقاء بالإنسان في سلم التحضر، حيث يصبح السياسي ورجل الاقتصاد والدين والتعليم...، كل متصوفا على طريقته. إن أهم درس يمكننا استخلاصه من التزعة الصوفية، وهو ما بات يشكل مطلبا ملحا في ظل الواقع الراهن الذي أضحى العنف بأنواعه سمة له، هو التحلي بروح التسامح التي تقضي بالاعتراف بالآخر ومنحه مسافة من الحرية التي تضمن له حقه في ممارسة الاعتقاد الذي يشاء دون إجباره على اعتناق هذه الصورة من التفكير أو تلك، وقد كان لنا في معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الملل والنحل الأخرى خير مثال. وما جعل يوسف زيدان يبنه على هذا الجانب في النفس البشرية (التصوف في صيغته الجديدة) والذي ينحو إلى التسامي عن أي غايات لحظية أو جزئية... إنما هو الأمل في تفعيل هذا الجانب من الذات، الذي أدى تغييره إلى حالة "المواجهة مع الجنون" التي أطقت على العقل العالمي والعربي على حد سواء. وتظهر هذه الحالة في الواقع الراهن على شكل صراعات مستعرة بين الجميع وأخرى منذرة بالانفجار في كل حين. ومن هنا يصبح النموذج/الصوفي تعبيرا عن الوعي الحضاري الذي تفتقر إليه المجتمعات المعاصرة؛ كونه يبتعد عن المنظور الضيق النابع أصلا من الجانب الحيواني في النفس البشرية، المتعطش للفتك والمتجلي في الأحكام المسبقة الجاهزة للانطباق: زندقة، كفر، إلحاد... ويمكن أن يتعدى الأمر في بعض الأحيان إلى القتل. فكيف وظف يوسف زيدان رؤيته الجديدة للتصوف من أجل اقتراح آفاق جديدة للتعايش السلمي المشترك بين مختلف الأطراف، في ظل الإشكالات التي بات يعيشها العرب والافتراءات التي باتت تكال للإسلام على وجه الخصوص في ظل الوضع الراهن؟

إن محاولة الإجابة عن هذا التساؤل، تضعنا وجها لوجه أمام المشروع العام الذي تبناه يوسف زيدان، والذي يركز على رؤية كلية يسعى إلى تجسيدها من خلال تفكيك المفاهيم الكلية والتصورات الأساسية التي تحكم الوعي المعاصر. حيث يرى أنه من الضرورة بمكان خلخلة الخطابات المتداولة، حفرا وتنقيبا وموضعها ضمن سياقاتها التاريخية من أجل الكشف عن الأنساق الثقافية المضمررة التي أنتجت الكيفيات التي تتمظهر بها داخل الوعي المعاصر، ومن ثم إعادة بنائها بالشكل السليم، بشكل أكثر انفتاحا على الآخر، لما ترتب عن إقصائه من نتائج كارثية يشهدها الحاضر على المستويين العربي والعالمي. ويعتبر هذه الخطوة الوعرة أساسية وضرورة لا بد منها للخروج من المأزق الحضاري الذي يعيشه العرب خاصة، وتوجيه الأنظار من أجل العمل لبناء مستقبل أفضل.

إن النقد/تفكيك/اركيولوجيا/جينياولوجيا... الذي تعرض له الفكر الغربي (و العربي إلى حد ما) ينطوي على معالجة بعض مظاهر الفكر لكن في محدوديتها، لاتجاه معاول النقد ومطارقه نحو ثقافة معينة أو فترة تاريخية بعينها... إلخ، لذلك يحاول يوسف زيدان في منحى مغاير - من منطلق صوفي - البحث عن الوحدة داخل هذا الشتات وبيان نقاط الاتصال/التواصل بين المختلفين، باعتبار أن الجوهر الإنساني/الشرعية/التاريخ والجغرافيا كلها واحدة، وما الاختلاف والكثرة إلا مظاهر تختبئ خلفها وحدة كامنة، هذه الأخيرة أنتجت بنايات كبرى فاعلة ضمن متصل تراثي ممتد منذ القديم. مما يعني أن القضايا التي سيطرحها ويعالجها تسعى إلى تجاوز التصنيفات المتعارف عليها من منطلق الجنس أو العرق أو الدين أو الجغرافيا... للبحث في ذلك النسق الجامع والمضمر، يقول يوسف زيدان في توضيح المنهج الذي اتبعه: "والرؤية العامة، المنهجية، التي أنطلق منها (...) تتلخص في المحاولة الدؤوب للتجرد من الميول

والاعتقادات الدينية والمذهبية، سعياً للوصول إلى الموضوعية اللازمة لتفسير الظواهر الدينية، واقتراح التدين بالعنف والتخلف عن (الإنسانية) التي تجمع الناس".<sup>38</sup> ففي ظل طغيان الجانب الحيواني من النفس البشرية، يحاول من جديد إعادة تفعيل الوجه الآخر المغيّب/المنهج الذي اتبعه المتصوف/المفكر العقلاني/الشاعر المتسامي... الذي يجعل غايته السعي نحو (الإنسانية بوصفها غاية في ذاتها) بعيداً عن إطلاق أحكام الصدق والكذب... في ظل تعددية فكرية وعرقية متسلحة بالعنف القابل للاشتعال في أي لحظة. والتحلي بروح الحياد بحثاً عن ما يجمع الناس وتجاوز ما يفرقهم لمواجهة تدهور قيمة الإنسان التي يشهدها العصر.

من المسائل الراهنة التي تمثل نقطة خلاف ومثارة بين المسلمين فيما بينهم من جهة، ومع غيرهم/الغرب من جهة ثانية مسألة العنف وارتباطه بالدين/الإسلام تحديداً. حيث شاعت منذ فترة من الزمن بعض المصطلحات التي لم تكن معروفة من قبل على غرار: إرهاب، تعصب، تدين... إلخ للتعبير عن هذا السلوك العدواني وربطه بالدين بدعوى أنه نابع أصلاً من تعاليمه، وأثارت هذه القضية من الجدل وأسالت من الحبر الكثير، لتحليل أسبابها ومظاهرها وكذا نتائجها على المستويات الدينية كما الدنيوية. الأمر الذي جعل يوسف زيدان يبحث في لب هذه المشكلة والمتعلق بأسباب العنف باسم الدين. فما هي الأسباب الحقيقية التي يراها كامنة وراءه؟ هل يتعلق الأمر بالعقائد ذاتها؟ أم بالممارسات الفردية وما ينجر عنها من سوء فهم من طرف المعتقدين؟

لقد حازت هذه القضية اهتماماً كبيراً من لدن يوسف زيدان، لذلك نجده يناقشها في أكثر من عمل فكري وإبداعي له على غرار ما نجده في روايات: عزازيل، محال، غوانتانامو، فردقان. كما شكلت موضوع بحثه النظري الموسوم بـ"اللاهوت العربي وأصول العنف الديني"، وفي هذا الأخير يقوم بعملية تفكيك لمظاهر هذا العنف من أجل الكشف عن أصولها/جذورها.

يوجه عملية الحفر التي يتبناها إلى ما هو أبعد تاريخياً من الإسلام؛ صوب العقائد السماوية السابقة: اليهودية والمسيحية، حيث يتناول مجموعة من القضايا التي اهتمت بها هاتان الديانتان (مثل قضية الله والأنبياء) ومن خلال مجموعة من التحليلات يستنتج أن هناك نقاط تقاطع بينها وبين ما سيظهر في الإسلام فيما بعد من القضايا (علم الكلام) ويصطلح عليها "اللاهوت العربي"، باعتباره سابقاً للإسلام وبحكم انحساره جغرافياً في بلاد العرب/منطقة الهلال الخصيب. ليخرج بمصادرة مؤداها أن هذه الشرائع الإبراهيمية الثلاث (اليهودية، المسيحية، الإسلام) والتي تمثل دينا واحداً تجلّى تجليات ثلاث، إنما تخضع لنسق واحد/بنيات كبرى أنتجتها عقل هذه المنطقة، وتجلّى في مختلف المظاهر الفكرية والواقعية التي شهدتها هذه البلاد التي ساد فيها العرب واللغة العربية فيما بعد.. يقول يوسف زيدان: "بداية من خلال هذا المصطلح الجديد (اللاهوت العربي) الذي أطرحه هنا للمرة الأولى، أؤكد أن ثمة نقاطاً مفصلية، مهمة ومهملة، تجمع بين تراث الديانتين الكبيرتين: المسيحية والإسلام. بل تجمع هذه النقاط المفصلية الواصلة، بين تراث الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، التي هي، فيما أرى، ديانة واحدة ذات تجليات ثلاثة".<sup>39</sup> من هنا يظهر المسار الذي سلكه يوسف زيدان، حيث يبحث في ما يعتبره مهماً ومهمشاً ومنسياً، أي التواصل الفكري بين هذه التراثيات الثلاث التي عرفتها المنطقة بفعل تأثير السابق في اللاحق، وحتى تأثير اللاحق في السابق. ومن هنا يقوم بالبحث في البنيات الكلية التي حكمت هذا الوعي منذ القدم، والتي يجدها مازالت فاعلة ومتجلية من خلال الوقائع الفرعية التي يشهدها العصر الراهن. وهو بهذا يعمل ضمن مسار تراجع - تقدمي في الآن ذاته حيث يرد الحاضر إلى الماضي لبيان التفاعلات التي تظهر بإزائها الوقائع في وضعها الراهن.

ومن هذا المنطلق، يحاول زيدان تفسير ما يحدث على الساحة العربية وما تعانیه شعوبها، حيث يسعى إلى الكشف عن ملاسبات العنف باسم الدين والشروط المتحركة فيها، فيرده إلى جدلية العلاقة بين الدين والسياسة، وحضور العنف بوصفه طرفاً ثالثاً ضمن هذه الجدلية، لما يتسلح أحد الطرفين به لتأكيد سيطرته. ويرى أن هذا الارتباط بين الدين والسياسة والعنف تشهد عليه الأحداث التي عرفها هذا التاريخ الطويل (الواحد في حقيقته المنفصل في وعينا). يقول يوسف زيدان: "غايي من وراء ذلك، فهم ارتباط الدين بالسياسة، وبالعنف الذي لم يخل منه تاريخنا الطويل، اليهودي والمسيحي والإسلامي، ولن يخلو منه يوماً".<sup>40</sup>

وبتحليله للجدلية الثلاثية (دين - سياسة - عنف) من خلال ظهورها عبر هذا التاريخ الطويل والحافل بالأحداث الدموية، يجد أن العنف مرتبط بالتدين وليس بالدين، أي مرتبط بفهم الناس لجوهر الديانة، فالنصوص الدينية لا تنطق بذاتها ولكن ينطق بها الرجال. ومن هنا فإن التاريخ البشري لن يخلو قطعا من مظاهر العنف باسم الدين، فقد صاحب الفهم اليهودي للشرعية اليهودية كما صاحب الفهم المسيحي والإسلامي أيضا لجوهر الديانتين. ومن هنا ينتفي ارتباطه بالإسلام دون غيره من الشرائع الأخرى والمسلمين دون سائر الأمم؛ حيث نجد حروب الرب التي قادها اليهود، حروب الكنيسة ضد الوثنيين والهرطقة، الحروب الصليبية ضد المسلمين، الخوارج والشيعة في الإسلام... وغيرهم ويأتي بالكثير من الأمثلة عن مظاهر تكرار هذه الثلاثية في الزمن الراهن على الساحة العربية والعالمية مثل: ما يحدث في أفغانستان والعراق وفلسطين، تفجيرات أمريكا، مجازر السياح في مصر وما تلاها من حملة اعتقالات في صفوف المتشددين... فالجماعات الثائرة من منطلق ديني (والتي تضر في الآن ذاته غايات سياسية) تمارس عنفا - مقدسا - فتقابل بعنف مضاد من طرف السلطة السياسية راعية الدين/الرسمي، وتنفجر هذه الحركة الجدلية عن فوضى أشبه ما تكون بالدوامة حيث تختلط الماهيات والغايات وتغيم الرؤى وتتشت الأذهان، فيكون السياسي دينيا وعنيفا، ويكون العنف دينيا وسياسيا. وتحليله لميكانيزمات هذه الجدلية الثلاثية دين/سياسة/عنف، بما هي مرتبطة بالممارسة الإنسانية وليس بجوهر الديانة، إنما يحاول الكشف عن آليات اشتغالها وكذا إمكانية تكرارها إذا ما تهيأت لها الظروف المواتية في أي زمان ومكان، وهو ما يحدث حاليا في الأمثلة آنفة الذكر.

إن هذه البنية الكامنة داخل بنية الديانات التوحيدية الثلاث (أو الفهم الإنساني لهذه الديانات التوحيدية الثلاث) هي بمثابة النسق المضمّن الذي تربي وتقع بأقنعة مختلفة تجلت عبر التاريخ، وحتى يوم الناس هذا. يقول يوسف زيدان: "وكانت غايتي كذلك، إدراك الروابط الخفية بين المراحل التاريخية المسماة بالتاريخ اليهودي/التاريخ المسيحي/التاريخ الإسلامي! والنظر إلى هذه (التواريخ) باعتبارها تاريخا واحدا ارتبط بالجغرافيا، وتحكمت فيه آليات واحدة لا بد لنا من إدراك طبيعة عملها في الماضي الحاضر. أو بعبارة أخرى لا يمكن فهم طبيعة عملها في الحاضر المعيش من دون النظر المتعمق في طبيعة عملها خلال ماضينا الطويل، المشترك، يهودا ومسيحيين ومسلمين".<sup>41</sup> ومن هنا، يصبح من الضرورة بمكان فهم طبيعة هذه الارتباطات بين التاريخ الإسلامي والتاريخ السابق عليه (اليهودي - المسيحي) من أجل إعادة صياغة العديد من القضايا التي تظهر على الساحة الإسلامية المعاصرة ومن بينها ارتباط بعض التيارات الإسلامية بظاهرة العنف، مما يتيح فهم البنية المنتجة لها ومن ثم معالجتها في ضوء التجارب الماضية.

ويرى أن هذا النوع من البحث المنصب أساسا حول الكشف عن البنيات المنتجة/الكلية وليس الانشغال بالوقائع الآنية والمفردة، مغيبا تماما من طرف الباحثين من كلا الجانبين؛ الغربي والعربي على حد سواء، الذين "انشغلوا فقط بالجانب الذي فيه يدرسون ويبحثون، فلم يلتفتوا إلى الجوانب الأخرى الخارجة عن مجال نظرهم وميدان اهتمامهم. وقد ظن أولئك وهؤلاء، كلّ من موقعه، أن (العلم) الذي يشتغل به فريد في بابه، متميز بقشره ولبابه، ولا غناء فيما عداه ولا استغناء بغيره عنه. ومن هنا غرق في لجة هذا (العلم) أو ذاك، عقول نيرة كان من الممكن أن تزداد استنارة وتوهجا، لو نظر كل منهما فيما ينشغل به الآخر".<sup>42</sup> من هنا ينظر يوسف زيدان إلى ما قام به من خلال عملية الحفر في تاريخ المنطقة العربية والكشف عن الماضي/اللاهوت/الدين... المشترك/الواحد/المتكثر لمن سكنوا بلاد العرب (منطقة الهلال الخصيب) مسلمين ومسيحيين ويهود، بوصفه المغيب/ما لا يمكن التفكير فيه سواء بالنسبة للعرب وغيرهم، وهو ما قادهم إلى أخطاء فادحة ناجمة عن قصور النظر وسوء الفهم.

إن ما دفعه إلى التوجه نحو التاريخ بحثا في طبقاته وتقصيا لتراكماته، هو ما آل إليه وضع الإنسان في العالم عموما وفي البلاد العربية خصوصا؛ مصر، سوريا، العراق... والرؤية التي يحاول تكريسها تقضي بأنه لا وجود لأي أساس منطقي يبرر ذلك الصراع الأزلي بين مختلف الطوائف والملل والنحل، كونهم شعبا واحدا/سكنوا المنطقة العربية، وظهرت فيهم الرسالات السماوية الثلاث وخضعت جميعا للشروط التاريخية ذاتها، وما تلك الاختلافات التي تطفر إلا نتيجة اختلاف الفهم/التفسير/التأويل من طرف الناس،

ومن هنا تنتفي أحقية احتكار الحقيقة من أحد الأطراف ونسبتها إليه وتكفير البقية، والتوجه رأساً نحو العنف دفاعاً عن رؤيته الخاصة بوصفها الحقيقة المطلقة. وبعودته هذه إنما يحاول يوسف زيدان استشراف الحلول الناجعة لتجاوز هذا الوضع الذي تتخبط فيه الأمة العربية. وأما السبيل التي وجدها قادرة على بلوغ هذه الغاية فهي تفكيك المسلمات والتصورات الأساسية للكشف عن تاريخيتها وبالتالي إعادة بنائها من جديد انطلاقاً من وعي الذات بماضيتها وحاضرها.

ولإن كان التزوع نحو العنف من أجل إثبات امتلاك الحقيقة وتملكها بما هو تجل للجانب الحيواني من النفس البشرية، قد صاحب الفعل الإنساني عبر هذا التاريخ الطويل اليهودي - المسيحي - الإسلامي، فإن هناك اتجاهات أخرى أصيلاً في النفس الإنسانية ظهر هو الآخر منذ القدم، وصاحب أيضاً التفسير الإنساني لجوهر الديانات التوحيدية الثلاث، ينأى عن هذا الجانب الحيواني للنفس الإنسانية ويتطلع إلى السماوي والملائكي للوصول إلى الحقيقة، وهو ما ظهر في نماذج: القبالة، الرهينة، التصوف.

وانطلاقاً من المفهوم الجديد الذي يقدمه بديلاً عن التعريف القديم للتصوف، تأتي دعاوى زيدان والقاضية بتجاوز كل ما من شأنه أن يصرف النظر عن المسائل الأكثر جوهرية، والتي يجب أن تحشد لها الجهود الإقليمية والدولية من أجل تحقيقها، والمتمثلة في سبل تنظيم المعاملات بين الإنسان وأخيه الإنسان بما يحفظ كرامة وإنسانية كل منهما، داعياً إلى العودة إلى هذه النزعة الإنسانية الأصيلة وذلك النداء الداخلي للعلو، الذي به يتم تجاوز الخلافات الظاهرة بحثاً عن الوحدة التي تجمع الشتات/المختلف/المتعدد، وحمل الإنسان على مبارحة جانبه الحيواني والارتقاء نحو جانبه الأعلى/الملائكي سعياً نحو بلوغ الرقي الحضاري، وهو ما لن يتم فعلاً إلا بعد فتح آفاق التسامح والتعايش بين مختلف الأطراف. ولتحقيق هذا الغرض نبحثه يقترح الحلول التالية<sup>43</sup>:

الفهم والتفهم: يرى أنه لا بد من الفهم العميق لطبيعة كل ما هو ديني وما هو سياسي، والذي يتيح الاعتراف المتبادل بمشروعية النظرة السياسية وضرورة الرؤية الدينية بالنسبة للمجتمعات. وتكريس هذا الوعي لدى الأفراد عن طريق برامج تثقيفية ومناهج تربوية، بعيداً عما يعتبره "الطنطنة" العلمانية الجوفاء بانفصال الدين عن السياسة، وكذا التظاهرات الخرقاء المسماة حوار الأديان. ومن هنا يصبح الفهم الذي يدعو إليه، يتضمن الاعتراف بالتشابك الأزلي بينهما، ثم إقرار بالمسار الفردي لكل منهما. فلا يظن واحد منهما أنه يمكن أن يضمن نفسه بديلاً عن الآخر. ومن هنا وبدلاً من التعدي، يقترح عامل الفهم للتأكيد على الطبيعة المستقلة لكل منهما، والتجارية بالضرورة في الآن نفسه، ما يفتح أفقاً للتعايش السلمي بينهما ويحفظ حقوق الأفراد والجماعات على اختلافهم ويمنع دخول العنف طرفاً ثالثاً في هذه المعادلة. فبالتفهم يفسح المجال لقبول الآخر والاعتراف بحقه في الاختلاف، وهو ما يعتبر حلاً استباقياً أو وقاية من المآل الذي ينذر به وأد الظواهر الدينية الوليدة بالقوة.

الإظهار بديلاً للاستتار: يرى يوسف زيدان أن الجماعة الدينية - وتفادياً للقهر السياسي - تلجأ إلى حيل تعد بمثابة الأستار الوهمية، لكن سرعان ما يحتدم الجدل الثلاثي (دين/سياسة/عنف) ويحدث الصدام الحتمي. ومن هنا يصبح الإظهار، الذي يقترحه يقتضي الإقرار بالتعددية، والاعتراف بتنوع التجربة الإنسانية تنوعاً غير محدود من حيث أن الخبرة الإنسانية لدى الفرد أو الجماعة تطورية، تقابلية، ومتناقضة أحياناً أخرى. وهذا الاعتراف من شأنه التقليل من الحالة الصدامية كما يبعث على التحوار الدائم بينها، وتصبح المشاركة بديلاً عن احتكار اليقين من طرف بعينه.

الضبط المتوازن: يتعلق الضبط بالعمليات التي تهدف إلى تنظيم حركة الفرد في المجتمع. يقول يوسف زيدان: "والتوازن العام في الضبط الاجتماعي للأفراد، يقتضي تجنب الغلو والتشدد في صياغة القواعد والقوانين واللوائح الضابطة، ويقتضي التعقل في تطبيقها"<sup>44</sup>. حيث يرى أن الاعتقاد بأن صرامة القوانين تجعل الحياة أكثر انضباطاً، وهم عظيم انطلاقاً من القاعدة الفيزيائية التي تقول بأن الضغط يولد الانفجار. وفي هذه الحالة لا يقتصر التطرف على الجماعات الدينية، حيث يتطرف العلمانيون أيضاً في مذاهبهم، وينتهي الأمر إلى الصدام الحتمي. وهذا الأخير لا يقتصر على الداخل فقط حيث يمتد إلى الخارج. وهو الصدام المسمى مؤخراً -

حسبه - بالإرهاب. وفي المقابل فإن الضبط المتوازن لكل من السياسي والديني يترك مساحة للحرية الإنسانية، تقود إلى عمليات ضبط ذاتية يرتضيها الأفراد دون ضغط من أي جهة سياسية أو دينية.

التعاون الدولي: يرى يوسف زيدان أن مواجهة عمليات العنف الديني وعمليات العنف باسم محاربة العنف الديني، تقتضي تعاوناً دائماً ومستمرًا بين دول العالم. لأنها لم تعد مسائل داخلية، لما صارت لها تجليات عابرة للقارات. الأمر الذي تستحيل معه أي حلول جزئية أو إقليمية عديمة الجدوى، حيث يقتضي حلها كثيراً من الفهم والتفهم والاستبصار والضبط المتوازن. على أن لا يكون هذا التعاون سبيلاً آخر للهيمنة على العالم باسم محاربة الإرهاب. فقد أدى العنف الأمريكي إلى مزيد من العنف المضاد عابر للقارات لمواجهة الهيمنة الأمريكية، ولم يتحرر العراق لكن وقع في فوضى عارمة، ولم يتم القضاء على التطرف في أفغانستان، "فهناك - كما يقول - لا تزال الجبال.. والموروث.. والذكريات المؤلمة.. ونار الثأر المنذرة بالدخول إلى مرحلة أخرى من الانقلاب (الصفوي) بين الدين والسياسة"<sup>45</sup>.

منطلقاً إذن من خلفية تصوفية بحتة، يرى يوسف زيدان أن الحل الأمثل للإشكالات التي تعرفها المنطقة العربية والعالمية أيضاً، لا يكمن في العلمانية/فصل الدين عن الدولة، ولا في تكفير السياسيين، ولا في إقامة المؤتمرات حول حوار الأديان، ولكنه يكمن في خطوة أساسية هي إعادة بناء تصوراتنا عن ماهية كل من الدين والسياسة ومن هنا تتوضح الرؤية التي تحدد نوعية العلاقة التي يمكن أن تجمع بينهما، فتكون نتيجة ذلك، هي السعي إلى إيجاد سبل التعايش بينهما بوصفهما ضرورتان لا يمكن الاستغناء عن أي منهما. على أن هذه الرؤية الكلية التي يراهن عليها يوسف زيدان تطرح الكثير من المعضلات أهمها: هل دعوته المتمثلة في (المتصل التراثي) هي من قبيل اعتراف بك لتعترف بي؟ هل يجب القناعة بهذا المبدأ والارتقاء إلى هيمنة الماضي على الحاضر في عملية تكرار مستمرة؟ وإذا كان ذلك كذلك، ما جدوى الأصوات المنادية بالقطيعة من أجل إنتاج عقل جديد لعالم جديد؟ وإذا كان للسياسة الدور البارز في توجيه العلاقات الإنسانية وحتى توجيه المعتقدات الدينية في القديم، هل ستتخلى عن وظيفتها هذه في الزمن الراهن؟ ومن هنا تصبح هذه الرؤية بمثابة اليوتوبيا/الجمهورية الافتراضية التي يتعذر تحقيقها على أرض الواقع.

### خاتمة:

منذ بضع سنين خلت (تحديداً سنة 2015) قام يوسف زيدان، وعلى مدار سنة كاملة بتقديم مجموعة من المحاضرات على شكل صالونات تعقد بالتناوب بين الإسكندرية والقاهرة، خصصها لمعالجة مجموعة من القضايا التي وجد أنها محورية وركيزية. وأطلق عليها "سنة إعادة بناء المفاهيم والتصورات الأساسية"، زيادة على ما قدمه حول القضية ذاتها في كتبه الفكرية منها والإبداعية، حيث يعمل على الجانبيين معا بالتوازي، إذ الفكر والأدب عنده لا ينفصل الواحد مهما عن الآخر وهما بمثابة وجهي العملة الواحدة. وفي هذه المحاضرات وجه الرجل اهتمامه وجهة واحدة قوامها: خلخلة وتفكيك مجموعة من مسلمات التفكير التي تمثل الطابو/المقدس/المنوع التفكير فيه... والتي تراكمت داخل الوعي العربي فأحكمت قبضتها عليه باعتبارها حقائق ثابتة، وصارت عائقاً يحول دون أي محاولة لتجديد هذا الفكر والانطلاق به نحو غد أفضل، أكثر وعياً بالذات وبالآخرين. وهذا العمل الذي يقوم به أشبه بما يتم القيام به عند إعادة برمجة حاسوب تعرض للفيروسات المخربة لنظام تشغيله، هذه الفيروسات التي تسربت إلى العقل العربي/الجمعي عن طريق وسائل متعددة أهمها - في رأيه - مناهج التعليم التي تقوم بتزييف الحقائق. ومن هنا يصبح من الضرورة بمكان إرجاعه إلى حالته الأولى مما يتطلب إعادة بناء مفاهيمه الأساسية من جديد. ويؤكد في كل محاضراته على الأهمية التي يكتسيها هذا العمل/إعادة بناء المفاهيم والتصورات الكلية التي تؤسس رؤيتنا للعالم؛ لأنفسنا وللآخرين، على الرغم من المخاطر المحيطة بهذه المهمة، ومن هنا يبادر في الكثير من المناسبات للاستشهاد بعبارة العلامة ابن النفيس التي يقول فيها: "وربما أوجب استقصاؤنا النظر، عدولاً عن المشهور والمتعارف. فمن قرع سمعه خلاف ما عهده، فلا يبادرنا بالإنكار. فذلك طيش. فربّ شنع حقّ، ومألوف محمود كاذب. والحق حق في نفسه، لا لقول الناس له، ولنذكر دوماً قولهم "إذا تساوت الأذهان والهمم، فمتأخر كل صناعة خير من

متقدمها". في إشارة منه إلى أن كل جديد وغير مألوف يحفز على التفكير، يبادر إلى استهجانته لاعتقاده الفكري على معتقداته وارتياحه إليها، وهنا ممكن الصعوبات التي ستواجهه هو الآخر خلال قيامه بهذه العملية.

أما المسعى الذي يتغياه مشروعه هذا - المنصب أساساً على إضاءة علل التيه الجماعي الذي يعانیه العقل العربي وما أدى إليه من حالة (الخلل العام) بسبب تمركز الأفكار حول محاور وهمية واعتقادات خيالية لا يؤيدها سوى التاريخ الرسمي/المغلوط، وانعكاساته على مختلف أصعدة الواقع الحياتية - إنما هو محاولة تبديد هذه "التوهمات" من خلال إثارة شغف المتلقي أياً كان نوعه (وليس المثقف فقط) إلى إعادة النظر في تلك الخرافات التي تخاليل الأذهان وتؤسس وعياً مغلوطاً يهدف أساساً إلى إحكام القياد حول الرقاب والسيطرة التامة على الناس. وبصنيعه هذا لا يروم إعادة بناء أوهام جديدة، وإنما يسعى إلى توجيه العقل والمنطق وتحفيزهما كفعالية للتفكير تعصم من الوقوع في الزلل (ما يصطلح عليه تعقل الظواهر). ويعتبر محاولته هذه - إعادة بناء المفاهيم العامة والتصورات الأساسية - اجتهداً مضافاً إلى اجتهدات أخرى سابقة وأخرى لاحقة، قد يصيب كما قد يخطئ فلا يدعي اليقين التام؛ إذ هو دعوة لتحرير العقل من موروثات لم تتم مراجعتها، وإعماله في مفردات العقل الجمعي بغية إعادة بنائه من جديد على نحو أكثر رشداً وأكثر مناسبة لاستيعاب العالم وتطورات السريعة والمتواصلة.

وهو بهذا يلفت انتباه المفكرين من ضفتي المتوسط إلى قضية هامة، قوامها عدم جدوى الاتهامات التي يكيلها كل طرف إلى الآخر في ظل استمرار تدهور وضع الإنسان، وذلك من خلال تحفيز التفكير في الروابط التاريخية التي تجمع تراث هذه المنطقة الكبرى (البحر أوسطية). وكل جهد مفرد لن يكون بالفاعلية ذاتها إذا ما أصبح جماعياً، ومن هنا يصبح مشروعه هذا دعوة مفتوحة لجميع الأطراف على الضفتين من أجل تصحيح تصوراتهما بالنظر إلى الصورة الكلية - وهو ما يعتبره أمراً مهماً ومنسياً من قبل المفكرون من الطرفين - وعدم الانشغال بالتفصيلات الجزئية التي تختفي بها كل جماعة وتقتصر عليها جهودها الفكرية، من أجل تحقيق مستقبل أفضل يتشاركه الجميع سواء كانوا أقلية أم أكثرية... وهو دعوة أيضاً إلى إعادة الاهتمام بتحرير وتدقيق دلالة المفردات/اللغة وتتبع التغيرات التي تطرأ عليها، فبانضباط المفردات تنضبط المفاهيم وبانضباط المفاهيم تتضح الرؤى والتصورات، وينعكس أثرها في الواقع الفعلي.

وبالنظر إلى ما يحدث ضمن هذا الواقع المعيش، يحلل يوسف زيدان من منظور فينومينولوجي، مجموعة من التصورات ويعيد النظر فيها، من ذلك مسألة العنف الديني/العنف باسم الدين (الإرهاب) والذي كثرت مظاهره في العقود الأخيرة وكثر اللغط حوله، حيث تكشف له مجموعة من المسائل المتتابعة والمثيرة للجدل.

فانطلاقاً من مبدأ العقلانية (وحدة الكل) يبين يوسف زيدان أن الدين واحد وقد تجلى في صور ثلاث أقدمها اليهودية، وصولاً إلى الإسلام الذي أعاد بناء الكثير من المفاهيم والأفكار الأساسية المرتبطة بجوهر الدين والنبوة التي جاءت بها اليهودية وورثتها عنها المسيحية، وبدوام عملية التأويل ظهرت في كل منها تحليلات مذهبية وعقائدية لا حصر لها. وما يعضد هذا الطرح الحيز الجغرافي الذي ظهرت فيه هذه الشرائع الثلاث/منطقة الهلال الخصيب والتي انتشرت منها على ضفتي المتوسط. ومن هذا المنطلق/الاشتراك في الدين والتاريخ تكتسب عملية الكشف عن نشأة وتطور مختلف الظواهر (الجزئية) مشروعيتها؛ وذلك بتسليط الضوء على البنيات الكبرى المنتجة لهذه الظواهر الجزئية التي تطفر على الساحة الواقعية عبر هذا التاريخ الممتد، ومنها ظاهرة العنف باسم الدين.

وبتتبع العلل المؤدية إلى الظاهرة منذ الحقبة اليهودية وحتى يوم الناس هذا، يستنتج يوسف زيدان أن دواعي العنف إنما تنبعث من فعل "الدين" وليس الدين لأنه لا ينطق بذاته وإنما ينطق به الرجال، واعتقاد كل فرقة بأنها صاحبة الحق والبقية على ضلال. كما ينبثق أيضاً من ارتباط الدين بالسياسة لما تختلط أدوارهما حيث يصبح الديني سياسي ويصبح السياسي ديني، فيدخل العنف طرفاً ثالثاً. ويستشهد على ذلك بما حدث تاريخياً عبر المراحل الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلامية (اقتتال الطوائف اليهودية، المجازر التي

حدثت بين أتباع الكنائس المسيحية، ما حدث في التاريخ الإسلامي، وما يحدث حاليا/الظاهرة الداعشية بصرف النظر عن مسمياتها).

وإذا كان لهذا الجانب الأصيل في النفس الإنسانية، والذي ينحط بها إلى المستوى الحيواني المتعطش إلى الفتك وجوده وامتداداته عبر هذا التاريخ الطويل، فإن هنالك في المقابل نزوعا آخر أصيلا هو الآخر؛ يرتفع بالإنسان نحو دروب السماء/المطلق... عبر عمليات تذوق خاص وتوغل عميق وعكوف على مرآة الذات، ولا يقل امتدادا في التاريخ الإنساني عن الأول، عرفته مختلف الحضارات فلم يكن حكرا على حضارة بعينها، واتخذ أشكالا متعددة، حيث عرفته مصر القديمة (الهرمسية) وعند الهنود عرف بالنرفانا، وفي اليهودية كانت القبالة، وكانت الرهبة في المسيحية، والتصوف الإسلامي، وما اختلاف التسميات إلا نتيجة لاختلاف اللغات والثقافات التي ينتمي إليها. على أن يوسف زيدان لا يقصر هذه التزعة على الجانب الديني فحسب، بل يمكن في رأيه أن ترتبط أيضا بأكثر الاتجاهات مادية وابتعادا عن الدين (الفلسفة الماركسية مثلا). وبإعادته بناء مفهوم التصوف من جديد، إنما يتعد به عن التعريفات المدرسية المتداولة عنه، وأيضا عما استقر في أذهان عموم الناس من اعتبار تلك الاحتفالات الشعبية المسماة "الموالد" احتفالات صوفية، حيث يتمحور هذا التصور الجديد حول الإبانة عن شمولية هذه التجربة لارتباطها بنمط من الوجود الإنساني يعبر عن رؤية للعالم، ويتجلى في أوجه النشاط البشري؛ في الدين والفن والفكر/الفلسفة.

إن عملية إعادة بناء مفهوم التصوف من جديد التي يطرحها يوسف زيدان، لا تنغى إضافة تعريف إلى آخر أو الانتصار إلى رأي ضد آخر، وإنما توجيه النظر إلى ربط الفكر/النظري بالواقع/العملي الذي يعنى بالسلوك، أي تحليلات هذه الرؤية ضمن مساحة الوجود الإنساني. وبتفعيل هذه الرؤية العميقة للكون والإنسان وللدين والفن والجمال من جديد، بعد أن غيبتها الجزء العنيف داخل الذات الإنسانية، يمكن تجاوز حالة الجنون التي تتخبط فيها شعوب المنطقة العربية تحديدا، والعالم ككل.

إن استشعار حالة الحب والنظر بعين القلب مما يختبره المتصوف وكل المعاني الإنسانية السامية التي تحتفي بها هذه التزعة، من طرف كل من الفنان ورجل الدين والسياسي والمفكر الفيلسوف... وكل الأعضاء الفاعلين ضمن حدود الثقافة المحلية والكونية، يجعل من استضافة الآخر المختلف (عرقا، ثقافة، لونا...) وقبوله كما هو دون الحاجة إلى توطينه وتدجينه، لأنه ليس هوية غريبة إنما هو من المنابت ذاتها/الإنسان بوصفه هوية متناقضة، يعد شرطا ضروريا لرؤية الصورة في وحدتها وكيبتها حيث تختفي التناقضات وتعلو الإنسانية بوصفها غاية في ذاتها، وهو ما يحيي الأمل في بلوغ مستقبل أفضل تتحقق فيه سعادة الجميع، وهو ما لا يتم فعلا إلا عن طريق تسامي الإنسان عن الجانب الحيواني للنفس البشرية وسلوك الدروب الأصعب؛ دروب المحبة والحكمة.

القرآن الكريم برواية ورش عن عاصم.

قائمة المراجع:

• الكتب:

- 1- ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق محمد عزيز شمس، دار جدة، عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.س.ن).
- 2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الفكر، (د.س.ن).

- 3- أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي، دعوة إلى التقريب بين الأديان دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية، (د.ب.ن)، دار الجوزي، (د.س.ن).
  - 4- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، شرحه وعلق عليه محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.س.ن).
  - 5- سفيان زداقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2008.
  - 6- عيد إبراهيم عبد الله، الصوفية دين الحب، (د.ب.ن)، إبداع للترجمة والنشر والتوزيع، (د.س.ن).
  - 7- محمد إبراهيم الفيومي، الشيخ الأكبر ابن عربي صاحب الفتوحات المكية، (د.ب.ن)، الدار المصرية للكتاب، (د.س.ن).
  - 8- محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، القاهرة، أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017.
  - 9- محيي الدين بن عربي، فصوص الحكم، تعليقات أبو العلا عفيفي، بيروت، دار الكتاب العربي، (د.س.ن).
  - 10- يوسف زيدان، عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988.
  - 11- يوسف زيدان، المتواليات دراسات في التصوف، القاهرة، الدار المصرية، 1998.
  - 12- يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، القاهرة، دار الشروق، 2009.
  - 13- يوسف زيدان، فقه الثورة، القاهرة، دار الشروق، 2013.
  - 14- يوسف زيدان، دوامات التدين، القاهرة، دار الشروق، 2013.
  - 15- يوسف زيدان، فقه الحب، مصر، الوراق للنشر والتوزيع، 2015.
- مواقع الانترنت:

يوسف زيدان(2015) "إعادة بناء المفاهيم: الإرهاب والتطرف والجهاد والتصوف والطرق الصوفية"،

<https://m.youtube.com/watch?v=o7hU1Hr3viA>

هوامش:

- 1 - يوسف زيدان، فقه الثورة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2013، ص 116.
- 2- يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2009، ص 20.
- 3- يوسف زيدان(2015) "إعادة بناء المفاهيم: الإرهاب والتطرف والجهاد والتصوف والطرق الصوفية"،  
<https://m.youtube.com/watch?v=o7hU1Hr3viA>.
- 4- المرجع نفسه.
- 5- يوسف زيدان، فقه الثورة، ص 271.
- 6- ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق محمد عزيز شمس، جدة، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.س.ن)، ص 90.
- 7- المرجع نفسه، ص 106، 107.
- 8- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، شرحه وعلق عليه محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.س.ن)، ص 28.

- 9- سورة الشمس، الآية 7-8.
- 10- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الفكر، (د.س.ن)، ص ص 572، 573.
- 11- يوسف زيدان، "إعادة بناء المفاهيم: الإرهاب والتطرف والجهاد والتصوف والطرق الصوفية".
- 12- يوسف زيدان، المتواليات دراسات في التصوف، القاهرة، الدار المصرية، 1998، ص 7.
- 13- يوسف زيدان، دوامات التدين، القاهرة، دار الشروق، 2013، ص 182.
- 14- المرجع نفسه، ص ص 182-183.
- 15- محمد إبراهيم الفيومي، الشيخ الأكبر ابن عربي صاحب الفتوحات المكية، (د.ب.ن)، الدار المصرية للكتاب، (د.س.ن)، ص 42.
- 16- محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، القاهرة، أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017، ص 60.
- 17- المرجع نفسه، ص 59.
- 18- يوسف زيدان، المتواليات دراسات في التصوف، ص 9.
- 19- عيد إبراهيم عبد الله، الصوفية دين الحب، (د.ب.ن)، إبداع للترجمة والنشر والتوزيع، (د.س.ن)، المرجع نفسه، ص ص 106، 107.
- 20- عيد إبراهيم عبد الله، المرجع السابق، ص 107.
- 21- محمد إبراهيم الفيومي، المرجع السابق، ص 37.
- 22- يوسف زيدان، فقه الحب، مصر، الوراق للنشر والتوزيع، 2015، ص 17.
- 23- محيي الدين بن عربي، فصوص الحكم، بيروت، تعليقات أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، (د.س.ن)، ص 25.
- 24- المرجع نفسه، ص ص 24، 25.
- 25- المرجع نفسه، ص 79.
- 26- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2008، ص 138.
- 27- يوسف زيدان، المتواليات دراسات في التصوف، ص 8.
- 28- يوسف زيدان، عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص 120.
- 29- ابن عربي، ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، نقلا عن: أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي، دعوة إلى التقريب بين الأديان دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية، (د.ب.ن)، دار الجوزي، (د.س.ن)، ص 386.
- 30- المرجع نفسه، ص 388.
- 31- المرجع نفسه.
- 32- المرجع نفسه.
- 33- يوسف زيدان، دوامات التدين، ص ص 185-186.
- 34- المرجع نفسه، ص 186.
- 35- المرجع نفسه، ص ص 185-186.
- 36- المرجع نفسه، الصفحة 186.

- 37- المرجع نفسه، ص ص 44-45.
- 38- المرجع نفسه، ص 20.
- 39- المرجع نفسه، ص 10.
- 40- المرجع نفسه، ص 37.
- 41- المرجع نفسه، ص 37.
- 42- المرجع نفسه، ص ص 36-37.
- 43- المرجع نفسه، ص ص 185-193.
- 44- المرجع نفسه، ص 188.
- 45- المرجع نفسه، ص 193.